المشاهدات والوجدانيات ومظاهر أخرى من التداوليات في ميزان الخطاب القرآني

أ.ليـلى جـــودي
(جامعة الجزائر2)

القرآن الكريم خطاب الله الأزلي، الذي أعجز الناس كافة عن محاكاته، وتحدى كل العرب، وهم أفصح الأمم وأقدرهم على البيان، عن الإتيان بمثله، أنزله الله على رسوله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن طريق الوحي جبريل ـ عليه السلام ـ؛ لتتلقاه البشرية بدورها من خاتم الأنبياء والمرسلين. وقد استند هذا التلقي أولا إلى السمع ثم البصر، متخطيا منطقة الحواس إلى العقل، ليصل مباشرة إلى القلب، وكلّ هذا من أجل الانتهاء إلى المتلقي؛ سواء أكان عبدا مؤمنا بما أُنزل إليه من ربّه أم عبدا كافرا رفض هدي ربه؛ لأنّ النفوس على اختلافها ترتاح إلى مخاطبتها بالحسّ، فهو أول وسائل المعرفة وأهمها لديها. [1] لكن هل من علاقة بين حاستي السمع والبصر وبين العقل والقلب؟

إنّ القرآن الكريم في كلّ آية يطرح قضية السمع، ولا أدل على ذلك من أنّ أول سورة أنزلت سورة "اقرأ" التي اقتضت إعارة السمع للوحي؛ كي يتلقى الخطاب بالصورة المطلوبة، وما يزيد هذا تأكيدا ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ سورة طه ـ الآية 114، حينذاك يتمكن المتلقي من قراءة ما استمع إليه .

ولم يكتف السمع بنقل الخطاب من مخاطِب إلى مخاطَب فحسب، وإنّما اختص ـ أيضا ـ بنقله من الأذن إلى القلب، ومن ثمة إلى العقل، ولذلك قدّم السمع على البصر. كذلك فقد أثبت علم الأجنة أنّ جهاز السمع يتطور جنينيا قبل جهاز البصر، ويتكامل وينضج حتى يصل حجمه في الشهر الخامس من حياة الجنين إلى الحجم الطبيعي له عند البالغين، في حين لا يتكامل نضج العينين إلا بعد ولادة الجنين، ولذلك يبدأ الجنين بسماع الأصوات وهو في رحم أمه، وبالتحديد في الشهر الخامس من حياته الجنينية، ولكن لا يبصر النور والصور إلا بعد ولادته، [2] ويكفينا بيانا قوله تعالى: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**﴾ سورة الزمر ـ الآية 6.

ثم إنّ الذي يتمعن في آيات القرآن يجد ترادفا عجيبا بين السمع والبصر، وبين العقل والقلب، وممّا يؤكّد هذا قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ سورة الملك ـ الآية 10، حيث ذكر حرف العطف "أو" الذي يأتي بمعنى الشك أو الإباحة أو التخيير أو الإبهام أو بمعنى الواو العاطفة المقتضية للتشريك... وهو هنا يدل على أنّ السمع يعمل عمل القلب والعكس، أو أنّ إعمال السمع يقتضي إعمال العقل لفهم مقاصد الدعوة والعمل بها، كما تظهر أهمية عمل القلب والعقل وعمل حاستي السمع والبصر عندما يورد ذكرها مجتمعة في آن معا في أكثر من آية في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ سورة ق ـ الآية 37، وقوله: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾. سورة الإسراء ـ الآية 36.

والذي يدقق النظر في قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ**﴾ سورة الأنعام ـ الآية 46، يجد أن هذه الأجهزة كلها من سمع وبصر وقلب تذكر في صيغة واحدة "به"، ولم يقل بها، وفي هذا إشارة صريحة إلى أنّها تمثل شيئا واحدا. وكذا قوله عز وجل: ﴿**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**﴾ سورة الأعراف ـ الآية 100، فقد أوكل مهمة السمع إلى القلوب، وأيضا قوله سبحانه: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ سورة الحج ـ الآية 46، فقد أوكل مهمة البصر للقلوب... وغيرها كثير من الآيات التي تصبّ في هذا الغرض، ولا يسعنا ذكرها كلّها في هذا المقام، مما يستوجب تضاما بين هذه المدركات الكلّية التي اندرجت تحتها جزئيات رئيسة عملت على تحديد قدرات التواصل.

فإذا ما تمعنا فيما أمر به القرآن الكريم من إعمال السمع والبصر وأقر به نجد أن هاتين الجزئيتين تعدان أولى مداخل الإدراك لتلقي الخطاب، فهما حاستان ذهنيتان مرتبطتان بمجال الوعي، على اعتبار أنّ القرآن استعملهما في نطاق التواصل، كما استعمل البصر رديفا للسمع، فما أن ذكر السمع حتى اصطحب معه البصر؛ لأننا «نعلم أنّ المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر»، [3] و«لو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين، مجزئا عنه، لما تكلّف القائل ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه»، [4] كما هو الشأن بالنسبة إلى الرسل الذين أمروا بالذهاب إلى أقوامهم ومخاطبتهم، وملوكهم ومحاورتهم مثل قوله ـــ سبحانه ـ: ﴿**اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾ سورة طه ـ الآيتين 42 ـ 43، وقوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ**

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ سورة الفرقان ـ الآية 36. وتجاوز السمع ذلك بأن صار مرادفا للحياة؛ فالذي يقرأ قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾ سورة فاطر ـ الآية 22 يتجلى له ذلك، وتظهر له أهمية إعمال سمعه وبصره.

إنّ مفهوم السمع والبصر ليس مجرد صوت ينقل إلى الأذن، وصورة تتجلى للنظر على التوالي، وإنّما يحيل كلّ منهما إلى أعمال ملموسة، يدركها العقل ويحرّكها القلب، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما، فيكون وصول المعنى إلى القلب تِلْوَ وصول اللفظ إلى السمع. [5] ومن هذا المنطلق فإنّ كلا من السمع والبصر يمهدان بحق لتهيئة الجو النفسي الانفعالي الذي يثار بين أطراف التواصل، ويمثلان نقطة الانطلاق لتحديد الأدوار والأعمال التي أسندت إلى المخاطب؛ ذلك أنّ المزية «ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك، وتُعمل رويتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك». [6] وحسبنا في هذا المقام أن نورد ما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنّه قال: «أعطوا أعينكم حظها في العبادة» قالوا: وما حظها في العبادة ؟ قال: «النظر في المصحف والتفكّر فيه والاعتبار عند عجائبه».

وإذا ما دققنا النظر فيما حض به الله عز وجل في محكم تنزيله من إعمال العقل والقلب فإننا نتوصل إلى مسلمة لا مشاحة فيها من أنه يرتفع بهاتين الجزئيتين أيما ارتفاع حتى يجعلهما جوهر الإنسان؛ لأنّهما «مركز الإيمان ومحل الكفر»، [7] فقد احتكم القرآن إليهما لتأكيد حقيقة الخطاب من خلال توزيع الأدوار عليهما، فحث القلب على التبصر والنظر والتدبر، وكذا أمر العقل، على اعتبار أن البصيرة قوة للقلب المستنير بنور القدس. يرى فيها حقائق الأشياء وبواطنها بمنزلة البصر للنفس، يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهي التي يسميها

الحكماء العاقلة النظرية والقوة القدسية؛ [8] إذ تزداد بصيرة القلب كلّما أعمل الإنسان عقله، ليدرك فاسد الأشياء من صالحها، وعاش يتأمل الخطاب/ البلاغ ويتفكر، ويذكر الله قائما وقاعدا وراقدا على جنبه، فاقترن دورهما، أي العقل والقلب، بعضهما ببعض، وفاق بقية الجزئيات. ويجوز لنا أن نعتبرهما حياة الإنسان؛ لأنّه بإمكان الإنسان أن يستغني عن السمع والبصر، ولكنّه يستحيل عليه التخلي عن عقله أو قلبه، حيث إنّه إذا فقد عقله سقط عنه التكليف، وإذا حرم قلبه قطع عنه التواصل وأقفل، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ سورة محمد ـ الآية 24، لذلك كان لصوت العقل والقلب قدرة خارقة على ولوج عالم الخطاب.

ولا يفوتنا هنا أن نؤكّد مرة أخرى على التعالق الوشيج بين القلب والعقل، إذ يرجع استحسان البصير لجواهر الكلام إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده، [9] مثلما أخبر تعالى عن ذلك بقوله: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾ سورة الحج ـ الآية 46، وكلّ هذا موقوف على أن يكون قليل المعنى يغني عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه.. فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. [10]

إنّ القرآن خطاب يتوجه إلى العقل والقلب؛ لأنّهما وسيلتا التفكير والتدبر للوصول إلى النتائج، والعقل كما ورد ذكره في القرآن هو أسمى ما في الإنسان، لأنّه به يفرق عن الحيوان ويتميز، وبه يعقل ويكشف أسرار المعرفة ليؤمن إيمانا يقينيا، «فالعقل ميزان صحيح وأحكامه يقينية لا كذب فيها، كلّ ما في الأمر هو أن لا نستعمل هذا الميزان لنزن به ما ليس من موزوناته كالتوحيد والآخرة والنبوة». [11]

أما القلب فهو وعاء الرسالة؛ مما يعني أنّه أُعطي من الثروة العلمية الربانية ما يفوق علم البشر؛ ألا وهو كتاب الله،[12] الذي يقول فيه: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ سورة التكوير ـ الآية 23، والأفق المبين، تفسيرا، مطلع الشمس من قبل المشرق، وقيل: أقطار السماء ونواحيها. أما تأويلا؛ فهو نهاية مقام القلب.[13]

ولئن كان كلّ من السمع والبصر والعقل والقلب يسهم في إيجاد صيغة للتواصل، فإنّ هذه الآليات الحسية قد تصاب بالفساد، فلا يتم التواصل ولا يصل. ونحن هنا لا نعني إصابة هذه الأجهزة على المستوى الفيزيولوجي وتعطلها، ولكنّ الأمر متعلق بصمم الآذان وختمها، وعمى الأبصار وغشاوتها، والطبع على القلوب وإقفالها من قبل الإنسان نفسه، فلا يقبل تلقي الرسالة، ويعمل على تعطيل أجهزته، التي منّ الله بها عليه في نسق فريد دقيق يجعل منه إنسانا بحق، فهو ممن يسارعون في الكفر بعد أن اضطربت نفسه، وضاق صدره، ونفر من صوت الحق جحودا ونكرانا، فكان كالدواب والأنعام والكلب والحمار والحجر... إنّه ممن قال عنهم جلّ جلاله: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ**﴾ سورة الأعراف ـ الآية 179، وقال: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ سورة الأنفال ـ الآية 22، وقال: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ**﴾ سورة البقرة ـ الآية 74، وقال: ﴿**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ**﴾ سورة المدثر ـ الآية 50، كما قال: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ سورة الأعراف ـ الآية 176، فهو يتخذ كلّ هذه الصفات

ومثيلاتها، عدا أن يكون إنسانا؛ لأنّه غلّق على قلبه وعقله وسمعه وبصره، فكان من الغافلين الخالدين في جهنم.

وفي المقابل نجد إنسانا سويا، يؤمن بأنّ كلّ ما في الكون سُخِّر له بما فيه هذه الأجهزة، إذ سبحانه ما خلقها باطلا، لقد سمع نداء ربّ العالمين، فكان من الذين يسارعون إلى الإيمان، بعد أن اطمأن قلبه وانشرح صدره، وبهذا كان إنسانا عاقلا أعمل كل جزئية فيه قبل أن تشهد عليه، وكانت له عقبى الدار، فهو ممن قال عنهم جلّ جلاله: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ سورة آل عمران ـ الآية 191، وقال: ﴿**أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ سورة الزمر ـ الآية 22، وقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ سورة الأنفال ـ الآية 2، فهذه الحالات التي تنتاب الإنسان يصورها القرآن تصويرا دقيقا بارعا.

يعدّ التخاطب إذا المنشط الأساس للعقول والمحرّك الأمثل للقلوب. فأمّا الأولى فتتمّ بإقامة الحجة الواضحة وإتمامها على الناس بالإقناع، «عن طريق المقارنة والمقابلة، ليؤكّد أنّ الشيء الذي حدث في الوجود يمكن حدوثه على نفس الصورة مرة أخرى»، [14] فالأخلاق والمعتقدات والعبادات والمعاملات هي سلسلة من الأوامر والنواهي والمحظورات التي تشمل الناس جميعهم، والتي لابد أن تخضع للإقناع بالآيات الدالة ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ سورة فصلت ـ الآية 53، والمجادلة بالتي هي أحسن. وقد جاء هذا في قوله عز من قائل: ﴿**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ سورة النحل ـ الآية 125.

وأمّا الثانية فتتمّ بالتأثير بالحكمة والموعظة الحسنة والتواضع؛ كما أمر الله بذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ سورة النحل ـ الآية 125، وقوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ سورة آل عمران ـ الآية 159، وتتمّ ـ أيضا ـ بالأداء الفني الجميل، وما فيه من ظلال، والتأثير بسحر البيان من غير إكراه، إذ **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)** سورة البقرة ـ الآية 256؛ لأنّ «ما يهمّ معياريتها هو "عقلنة" الإرادة الإنسانية بدون عنف أو إكراه »[15]... وهذا ما نجده في كتاب الله «القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان».[16]

يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾ سورة النساء ـ الآية 63، فهذه الآية الكريمة التي تبيّن بجلاء تام مقصدنا، تشير إلى الأهمية الجليلة للتخاطب، وتكشف إمكاناتها داخل الخطاب وجدواها، وبناء عليه فالتخاطب هو جزء من الخطاب، بوصفه بلاغا عقلانيا موجها إلى الناس كافة؛ لذلك كان من الطبيعي أن يقوم على الحوار، والحجاج، والاستدلال المنطقي، وتقديم البراهين، والجدال... وغيرها من الآليات التي رُصدت لإظهار الحق، وإثبات صدق الرسالة، وعرض الأحكام الشرعية وتوضيحها، وكذلك حتى تتفتح مغاليق العقول، وتطمئن القلوب، ويتحقق التأثير في النفوس.

وقد جاءت هذه الآليات جميعها موزّعة في الكتاب كلّه؛ ردا على الأسئلة التي كانت تخصّ الخطاب، وتحتاج إلى توضيح ما أشكل فيه على الفهم، كما هو حال من سأل عن الأهلّة، وعن الحيض، وعن الميراث، وعن الزكاة، وعن اليتامى، وعن الحلال والحرام كقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ**

الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة المائدة ـ الآية 4، فمثل هذه التساؤلات تدخل تحت إطار السؤال المرغوب فيه، الذي طُرح من أجل تطبيق ما جاء في الخطاب القرآني. كما كانت هناك أسئلة ترد على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تباعا لإرهاقه وتعجيزه، فيوحي إليه الله إجاباتها دون تحامل على السائل أو ترذيل له، وإن كان سفيها، بل كان ردّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكيما منطقيا، لا تعتريه مخاصمة، ممتثلا لأمر ربّه باتخاذ الصبر منطلقا ومنتهى، فهو القائل عزّ وجل: **﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾** سورة يونس ـ الآية 109؛ ذلك أنّ تحلي الرسول الكريم بالصبر يفضي به إلى الرّد من غير فظاظة أو غلظة، وهو بهذا قد بلغ ذروة التحضر السامي في تواصله مع غيره أيا كان، والشواهد على هذا كثيرة منها قوله تعالى: **﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾** سورة فصلت ـ الآيات من 9 إلى 12، فقد خاطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكافرين في هذه الآية بأسلوب لفت به أنظارهم، للتدبّر والتفكّر، وكان ردّه هذا يجيء على شكل حوار تتجلى فيه قدرة الله وعظمته، كما ورد هذا في الآية الآنفة الذكر، أو يجيء على شكل حجاج؛ كذلك الذي جرى بين الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ والمتجبر النمرود الذي آتاه الله الملك فطغى، لمّا قال له إبراهيم: **﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي**

وَيُمِيتُ﴾ فقال المتجبر: ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾، ثم دعا من وجب عليه القتل فأعتقه، ومن لا يجب عليه فقتله، فعلم الخليل أنّه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة، أو علم ذلك وغالط بهذا الفعل، فانتقل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى استدلال آخر أشدّ إفحاما، فلا يجد المتجبّر له وجها يتخلص منه فقال: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ**﴾ فانقطع المتجبّر، وكان منه ما أخبر الله سبحانه وتعالى به عنه حيث قال: ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ سورة البقرة ـ الآية 258، فالملاحظ هنا، أنّ هذا النوع من التواصل العقلاني، استلزم موقفا خطابيا نموذجيا، ذا بنية لغوية متناسقة، ونسبة مساوية في الحديث للأفراد، تؤهلهم لبسط حججهم وتفسيراتهم، كما تحدياتهم واعتراضاتهم، وكلّ هذا يستند إلى أخلاقيات المناقشة والبرهنة، التي لا تخلو من معايير منطق الخطاب وصفاته؛ كالصدق والصحة والصلاحية والدقة والمسؤولية والمعقولية... مما يؤكّد أنّ الحجاج ما هو «سوى دراسة لطبيعة العقول، ثمّ اختيار أحسن السّبل لمحاورتها، والإصغاء إليها، ومحاولة حيازة انسجامها الإيجابي»؛ [17] ممّا يعني أنّ رفض مبدأ البرهنة يعني الانسحاب على الفور من جماعة الكائنات العاقلة، [18] كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من قوم لوط وهود وشعيب وصالح، برغم أنّهم رأوا آيات ربهم ماثلة أمام أعينهم، من غير أن يعتريها شك، كَذَّبُوا بها فَعَمُوا وَصَمُّوا، فهؤلاء وغيرهم ممن سار على خطاهم كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ؛ لأنّ ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ**﴾ سورة الأعراف ـ الآية 179.

ونجد في القرآن الكريم حوارات أخرى، غير بعيدة عن الحوار الذي دار بين الخليل والنمرود، ولا تخلو من حجاج عقلاني سليم وصادق؛ كالذي دار بين

موسى وهارون وبين فرعون ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى* قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى* قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى* كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى* فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ سورة طه ـ الآيات من 42 إلى 64، فمثل هذه الحوارات تشكل اللبنة الأولى للتواصل الصحيح؛ لأنّه يلعب دورا مركزيا في بلورة العملية التواصلية، «فبقدر ما يصل المتحاورون إلى الاتفاق يمكن للحوارات عندئذ أن تتواصل وتقترب من الحقيقة، إذ يتخطى الحوار الحقيقي الذاتانية والرأي الذاتي للمشاركين. فاللوغوس لا يمكن

أن يكون ملكك أو ملكي، بل يبقى مشتركا بين ذاتية المتحاورين، ورهينا بالتذاوت، وهو ما يجعل للحوار فاعلية كبرى، تمكّن كلّ متحاور أن يصل إلى رؤية الحقيقة ومن موقعه الخاص به».[19]

وقد يجيء الرّد على شكل حجاج، ينقل فيه المخاطب من حال التردد إلى حال القبول والانصياع، كما ينقل من حال اليقين فيما يزعم ويدعي، إلى الشك فيه، إلى غاية أن يتحول عنه إلى اليقين؛ أي يرجع إلى فطرته من خلال «إنتاج متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»،[20] مثل قوله تعالى: ﴿**فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى* قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى* فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى* قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾ سورة طه ـ الآيات من 60 إلى 69، وفي ذات السياق ﴿**... قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ سورة يونس ـ الآيتان 81 ـ 82 ، فاجتمعت الحجّة القولية الداحضة، التي تلفظ بها موسى، مع الحجّة المادية التي أيّده الله بها، وأسفرت عن رجوع السحرة إلى الفطرة التي خلقوا من أجلها ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ سورة طه ـ الآيات من 70 إلى 73، فهذه الآيات هي نتيجة لما سبقها من آيات، بوصفها حججا تخدم النتيجة وتؤدي إليها؛ ذلك أنّ «قوتها، ضمن سياق معين، تقاس بأهمية التفسيرات المقدمة، ومتانة الأسس التي استندت إليها هذه الأهمية، وتلك المتانة تتجلى أكثر ما تتجلى في قدرة الإنسان الذي ينشر التواصل على إقناع الطرف ـ أو الأطراف ـ المحاور الأخر وكسبه في النهاية»؛[21] مما يعني أنّ القرآن الكريم ليس خلوا من البراهين، التي تسمح بتحقيق التوافق بين المشاركين في بناء مشروع تواصلي ما، وفيه يمكن للأطراف الفاعلة في المشروع التواصلي تجاوز ذاتيتهم الأولية المتضمنة في تصوراتهم، والتأكّد في الوقت ذاته من وحدة العالم الموضوعي.[22]

إذا فللقرآن مزاجه الخاص في التواصل، فهو حينا يصل طريق الحوار والجدال والحجاج، بالرّد على المخاطِبين المخاطَبين ومسايرتهم، كالذي جاء في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾** سورة الأنبياء ـ الآيات من 51 إلى 56، وحينا آخر بإقناعهم بما لا يترك مجالا للشك فيما وصلهم كقوله تعالى: **﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾** سورة البقرة ـ الآية 23 ، أو بقطعه عليهم بتخويفهم كقوله

تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ سورة النساء ـ الآية 82.

ومثلما جاء الحجاج على شكل كلام، موجّه إلى السائل أو المحاجج أو المحاور، فقد جاء على شكل سلوك غير لفظي؛ [3] [2] كأن يجيء على شكل مكر وكيد؛ كما فعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي أقسم بالله أن يمكر بآلهة قومه، ويحتال في وصول الضر إليها بعد ذهابهم عنها إلى عيدهم، فكسّر الأصنام حتى جعلها فتاتا وحطاما، وترك الصنم الكبير، وعلّق الفأس الذي كسّر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم، حيث قال جلّ جلاله: ﴿**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ* قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُون** ﴾ سورة الرعد ــ الآية 13، أو يجيء على شكل صبر وهجران جميل، مثلما جاء في قوله تعالى: **(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)** سورة المزمل ـ الآية 10، أو على شكل دلائل وعلامات كالرجل الصالح الذي أماته الله مائة عام، ثم أحياه، وأبقى شرابه وطعامه على حالهما، وكيف صار حماره هيكلا من البلى، فقد قال تعالى: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ**

وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة ــ الآية 259...

إنّ البحث عن الحقيقة واطمئنان القلب لها مثلا، يفترض وجود حلقة كاملة من الأحكام، والبراهين، والحوارات، والمجادلات، والحجاج، إذ من الضروري بمكان، بالنسبة إلى بعض المخاطبين الإطلاع عليها، ومعرفة الصائب منها من المزيف، من دون إقصاء لأحدها أو هروب من مواجهتها أو تسفيهها؛ إما جهلا أو تجاهلا لها، بالاستعلاء عليها كما هو الشأن بالنسبة إلى قوم هود ـ عليه السلام ـ ومن سار على دربهم، إذ يقول عز وجل: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ**﴾ سورة الأعراف ـ الآية 66، وكان ردّه ـ عليه السلام ـ أن ﴿**قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**﴾ سورة الأحقاف ـ الآية 23، وهم لا يختلفون عن قوم نوح وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات... فهم مثلما ذكرهم القرآن الكريم في توصيف دقيق فقال: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ سورة النمل ــ الآية 14.

إذن فقد استند دفع الناس إلى الاعتراف بالحقيقة التي وردت في الخطاب، واستمالتهم نحوها، وإقناعهم بها، إلى هذه الخصيصة التي هي لب التواصل، وقد وردت بكثرة، مرغوب فيها، لتعني أنّ التعبير أيا كان نوعه، لفظيا أو سلوكيا، يشير إلى قدرة الخطاب على توجيه المخاطب فكرا وعاطفة وسلوكا، من دون قسر أو إجبار، عبر مسارات استدلالية قضت على طعون المكذبين، وهو الأمر الذي عرف عند بعض الدارسين بـ "العقلانية التواصلية" التي تسعى إلى ضبط علاقة الفرد بالآخر، ضمن إطار أخلاقيات المناقشة والحوار القائم على المساواة، وهي في

الوقت ذاته تكفل شروط التفاعل السليم والحوار المتبادل... وتحدد الشروط السليمة والكفيلة بامتحان مصداقية ومعيارية أي خطاب يدّعي لنفسه الصلاحية على ما عداه من الخطابات. [24] وبالتالي تشعّب مفهوم الحجاج تبعا لتشعُّب مجالاته، «وتعدّد استعمالاته، وتباين مرجعيّاته: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، [...] ويستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعيَّة خطابية محدّدة، ومن خصوصية الحقل التواصلّي الذي يندمج مع استراتيجياته [...] ولا غرابة والحالة هذه أن هناك حجاجًا خطابيا (لسانيا)، وحجاجًا خطابّياً (بلاغيا)، وآخر قضائيا أو سياسيا أو فلسفيًّا... ». [25]

وخطاب الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يكن ادعاء أو اختلاقا أو افتراء، مصداقا لقوله تعالى:: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ سورة النساء ـ الآية 82.

ومثلما أنصف القرآن الكريم نفسه بالحجج البالغة، والبراهين الساطعة، والآيات الواضحة، فإنّه في المقابل أنصف كلّ متكلِّم مخاطِب، وأشار إلى خطاباته التي تراوحت بين صدق قوله أو بطلانه، من ذلك قوله عزّ وجل: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾ سورة يس ـ الآية 20، وقوله: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ سورة المائدة ـ الآية 83... فهذه الآيات فيها إنصاف من الله وعدل، لمن كان لهم يد في الدعوة إلى الله، فهو جلّ جلاله لا يُغفل من قول الإنسان وعمله مثقال ذرة، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فـ ﴿**إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾.

ومثلما شارك هؤلاء بالكلمة الطيّبة في تصحيح المفاهيم، وتوجيهها نحو الرشاد والهدى لتحقيق صلة الوصل، بالاستجابة للرسل وعبادة الله وحده، فإنّه، في المقابل، عمل بعض مرضى النفوس من الكفار والظالمين على نشر الأباطيل وتزييف الحقائق، ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ سورة البقرة ـ الآية 111، ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ سورة البقرة ـ الآية 80، وقوله: ﴿**إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم**﴾ سورة النور ـ الآية 15، فمثل هذه الآيات جاءت مصحِّحة مؤدِّبة لأفكار العصاة، ومكذِّبة لكلام المضلِلين من الكفار.

هو ذا الأسلوب الحضاري التواصلي الذي كان يديره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أرقى صوره، حتى لا يحاسب الله أحدا من خلقه إلا بعد أن تقوم عليه الحجة، وهذا ما وسّع نطاق التواصل، وكثّف طرقه ونوّعها؛ بين تواصل عقلاني ذاتي فردي كالذي نستشفه في هذه الآيات: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ*إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾ سورة الأنعام ـ الآيات من 75 إلى 79، إلى تواصل عقلاني ثنائي كما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا**

جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا*كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا*وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا*وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا*وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا*قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا*لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا*وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا*فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا*أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا*وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ سورة الكهف ـ الآيات من 32 إلى 42، فالملاحظ هنا أنّ التواصل ورد على شكل حوار، وهو لم يتجاوز طرفين اثنين لا أكثر، وآخر متعدد تغلّب عليه طابع الجدال بنوعيه وصنفيه؛ فأما الأول فهو الصنف الحسن المرغوب فيه، ويكون فرديا، كقوله: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** سورة المجادلة ـ الآية 1، وجماعيا كقوله: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** سورة النحل ـ الآية 125. وأما الثاني فهو الصنف المرغوب عنه، وقد ورد في المفرد، كقوله: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾** سورة لقمان ـ الآية 20، وفي الجمع كقوله: **﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ**

﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ سورة غافر ـ الآية 35.

تأسيسا على ما سبق ذكره، يتضح لنا أنّ الاستجابة تتم من قبل الذين يسمعون كلام الله، ويبصرون آياته، ويتدبرونها بقلوبهم، ويتفكرون فيها بعقولهم، يستعينون بهذه المداخل التي زوّدهم الله بها، وجميعها؛ أي السمع والبصر والعقل والقلب، يمثل نسقا متكاملا يشكّل الأداة التواصلية التي تبحث عن جمالية تهادن القلب، وتضبط العقل، وتحرّك الحواس لتكون أليق بهذا الخطاب العقلاني، فليس عبثا أن يذكّرنا الله تعالى بالعقل ومكانته، والسمع وضرورته، والبصر ونفعه، والقلب وقيمته؛ لأنّ النفس تزداد خشوعا بالذكر الذي دعا إليه الله، والروح تزداد غنى بالنظر، والعقل يزداد إدراكا بالتدبر والتفكر، وهي الأمور التي دعا الله إليها وحثّ عليها كثيرا. وكلّها تقوم على «الحوار المتبادل في مظهره العقلاني، المقرون بسياق لغوي تداولي، يعتمد البرهان وأسلوب المحاججة»، [26] ويحافظ كلّ أسلوب على خصوصيته؛ فلا الجدال قادر على أن يحلّ محل الحوار، ولا الحوار بدوره قادر على أن يقوم مقام الحجاج.

الهوامش

1 - محمد زغلول سلام: النقد العربي الحديث ـ أصوله، قضاياه ومناهجه ـ مطبعة المعرفة ـ القاهرة 1964 ص 62

2 - عاطف المليجي: من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الطبعة الرابعة 2004 ص 118

3 - الجرجاني: أسرار البلاغة، تحق / محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، دار الجيل ـ بيروت ـ ط1، 1991 ص 105

4 - ابن جني: الخصائص ج 1 ص ص 146 ـ 147

5 - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، قراءة و تعليق محمود محمد شاكر ـ دار المدني ـ جدة، مطبعة المدني القاهرة ط 3، 1992 ص 271

6 - المصدر نفسه ص 51

7 - محمد علي الجوزو: مفهوم العقل و القلب في القرآن والسنة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط 1، 1980
ص 203

8 - الجرجاني (أبو الحسن علي): التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط 2 ـ 2003 ص 50

9 - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ص 3

10 - ينظر الجاحظ: البيان والتبيين ، تحق عبد السلام هارون، دار الجيل ـ بيروت ـ 1948 ج 1 ص 83

11 - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1979 ص 825

12 - ينظر محمد علي الجوزو: مفهوم العقل و القلب في القرآن و السنة ص 210

13 - ينظر الجرجاني (أبو الحسن علي): التعريفات ص 36

14 - محمد علي الجوزو: مفهوم العقل و القلب في القرآن و السنة ص 71

15 - جان مارك فيري: فلسفة التواصل تر/ عمر مهيبل منشورات الاختلاف ـ الجزائر، المركز الثقافي العربي ـ بيروت ، الدار البيضاء، الدار العربية للعلوم ـ بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى 2006 ص12

16 – صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم ـ الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان ـ ط 1 1995 ص 182

17 – محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، العدد الثاني، يناير/ مارس،2000، ص68

18 – للاستزادة ينظر حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية ، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ المغرب، بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى 2005 ص 142 و ما بعدها

19 – حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية ص 121

20 – العزاوي (أبو بكر): البنية الحجاجية للخطاب القرآني ـ سورة الأعلى نموذجا ـ المشكاة، المغرب ـ العدد التاسع عشر السنة الخامسة 1994 ص 125

21 – عمر مهيبل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف ـ الجزائر ـ المركز الثقافي العربي ـ المغرب ـ لبنان، الدار العربية للعلوم ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 2005 ص 355

22 – ينظر المرجع نفسه ص 354

23 – ينظر العزاوي أبو بكر: البنية الحجاجية للخطاب القرآني ـ سورة الأعلى نموذجا ـ المشكاة، المغرب ـ العدد التاسع عشر السنة الخامسة 1994 ص 125

24 – للاستزادة ينظر حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية ص ص 119 ـ 120

25 – أعراب (حبيب): الحجاج والاستدلال الحجاجي ـ عناصر استقصاء نظري ـ، عالم الفكر، الكويت، العدد الأول سبتمبر 2001، ص ص97 ـ 98

26 – حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية ص 126.